حين تعرف الأمة رجالها (*)

على بركة الله نقدم هذا العدد الخاص عن حياة فقيد الإسلام والمعرفة الشيخ محمد الحامد ـ رحمه الله ـ.

وإنما كان ذلك ـ وهو قليل مما يوجبه الوفاء ـ لما أن من الأمانة لهذه الأمة ـ وهي تعاني ما تعاني ـ أن نكون على معرفة بأولئك العاملين فيها، الأمناء على عقيدتها، الأوفياء لشرعتها ومبادئها.

فما أروع أن تعرف الأمة رجالها، تقي بهم نفسها ـ بعد عون الله ـ عوادي الزمن، وتصلح على إثرهم ما تتعثر به من زلات وأخطاء، لما يأخذون بيدها إلى ميادين الكرامة والأيد، وما يحفظون عليها من أمر دينها الذي هو قاعدة البناء.

وأجدر بهذه المعرفة أن تساعد في وضع الأمور مواضعها، من أجل تقويم المكان الطبيعي الذي يجب أن يأخذه كل واحد من أبنائها على طريقها الشائكة الطويلة، وفي ميادين العمل على تحقيق رسالتها في العالمين.

وليس شيء أضرَّ على هذه الأمة في دينها ودنياها، من أن يُلبِّس عليها أعداؤها، أو العاقون من ذويها، فتعجز عن تصور القيم التي على أساسها تبنى منزلة الرجال، وفي ضوئها يحسب حسابهم من الطاعة والاتباع.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثالث، السنة العاشرة، جمادى الأولى ١٣٨٩هـ، تموز وآب ١٩٦٩م.

وفي بيان مشرق لأبعاد هذه الساحة التي نشير إليها بهذه الكلمات، أوحى الله إلى نبيه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ قوله جلَّ وعزَّ: ﴿ **وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً** ﴾ فكان تعليمه ما لم يعلم هو الفضل الذي لا يغفل عن عظيم قدره إلا غافل، ولا يحدُّ سعة مدلولة إلا جاهل مسكين. أعلنها القرآن واضحة بعيدة عن التشبيه والتلبيس، لتكون في مرتبة التكامل مع مظهر من مظاهر الرسالة ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾.

لقد وقفت وما بي من حاجة إلى تلمس الحقيقة التي تكمن وراء هذا الهدير الذي يقرع القلوب في حياة فقيدنا الكبير الشيخ محمد الحامد ـ رحمه الله ـ.

فالرجل الذي يهب نفسه للعلم والمعرفة، ثم يجعل من سلوكه وعمله وجهاده بلسانه وقلمه صورة حيَّة صادقة لما يعتقد، هو رجل جدير بكل هذا الهدير الإيماني المعبر، حري بأن يكون مثلاً يحتذى، وأسوة تتبع، ولا نتألى على الله؛ فالعصمة للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

وليس من مكرور القول أن نذكر بأن أمتنا قد أعطت للفرد قيمة كبرى في ميدان النقل العلمي، خصوصاً لما يكون من سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ومن هنا ومن أجل هذا الغرض ـ كيما ينقل الحديث بالسند الصحيح ـ كان علم الرجال، ووجد علم الجرح والتعديل الذي يقوم على الوضوح والأمانة، دون محاباة أو مصانعة في الحق.

والشيخ الحامد أجزل الله مثوبته واحد من أولئك العلماء العاملين الذين وضعهم التاريخ على قمة المرتقى في تاريخ الأمة الحديث، فقد أكرمه الله بأن كان موضع الثقة في النقل، وموضع الحجة في العمل، وموضع القدوة للعلماء زهداً في الدنيا، وصدعاً بكلمة الحق، والتحلي بما من شأنه أن يحفظ على العالم ـ والعلماء ورثة الأنبياء ـ كرامته التي هي من كرامة الأمة.

ولن يعوزك البحث لتجد في كل واحد من تصرفاته ما ينبغي أن يكون عليه العالم رغَباً ورهباً، من تحقير لشأن كل منصب يمكن أن يعوقه عن أداء رسالته في الحياة، ولو كان هذا المنصب قد ألبس لبوس الدين، في وقت تشابهت فيه الأمور، وساد في أرجائه الكثير من تمويه إبليس.

ولم يكن هيِّناً من الأمر أن يحمل الرجل نفسه في شؤون الدنيا على المركب الخشن، فقد كان هذا دليل علو الهمة والانتصار على النفس الأمارة بالسوء؛ لأن الزهادة في الدنيا أمر ـ بمفرده ـ سلاح يقاتل، ونور يضيئ سبيل العالم إلى قوة التأثير والقدرة على فتح مغاليق القلوب.

والشيخ محمد الحامد ـ على تعدد جوانب شخصيته التي ترى فيها الجدَّ الجادَّ، والتحقيق العلمي، والغضب لله عز وجل، مع النكتة البارعة، وموهبة الشعر التي لو تسنى لها أن تأخذ طريقها الطبيعي لرأينا العجب العجاب.

استطاع في هذه الحقبة التي عاشها أن يكون فيصلاً بين العالم يتخذ العلم صناعة تُكسب الجاه والمال ومرضاة السلطان، وبين العالم يجعل من علمه زلفى إلى مرضاة الله وطريقاً إلى الجنة.

والرائع حقاً وراء ذلك كله، ما كان من الوعي الكبير لطبيعة العمل الإسلامي في العصر الحديث، ذلك الوعي الذي اتسمت به تحركاته ـ رحمه الله ـ منذ كان طالباً في الأزهر سنيَّ شبابه الأولى.

فلقد شهد بقلبه وعقله المرحلة التي تمر بها الدعوة الإسلامية، وكان على إدراك تام لما يجب أن تكون عليه الطريق التي ينبغي أن تسلك لتحمل أعباء الدعوة، في ظروف تستدعي الكثير من الإخلاص والمعرفة، والنظرة الجماعية إلى الموضوع.

ذلك أن الدعوة الإسلامية في هذا العصر قد ورثت تركة مثقلة بالكثير من العناء؛ نتيجة بعد المسلمين عن دينهم في منابعه الأصيلة الصافية، ومجافاتهم للمنهج الإسلامي الصحيح في مجال الفكر والحياة.

والعدو ـ وقد أمسك بزمام الحضارة المادية ـ يبتدع في محاربة الإسلام كل يوم سلاحاً جديداً، ويبني مؤامرة جديدة، وكثيراً ما يحاول الإتيان على النباء من الداخل على أيدي من ينتسبون إلى الإسلام، ويتسمَّون بأسماء بني جلدتنا وقومنا في ساحة من البهتان والزور.

كان هذا ـ وغيره كثير ـ أوجب العمل على تكوين قاعدة صلبة أمينة يقترن فيها الإيمان بالإعداد الصادق وحمل مسؤولية الجهاد، بحيث يكون الإسلام مع الفرد والجماعة التزاماً في كل خطوة وفي كل حركة، على إيجابية تباعد عن إلقاء الحبل على الغارب، وعن الاستغناء بالهدم عن البناء، ثم الاكتفاء بتجريح الآخرين عن إلزام النفس بما ألزمها به الإسلام.

ومن خلال القناعة بتكوين هذه القاعدة التي يكون في مقدورها ـ مستعينة بالله ـ أن تحمل الإسلام عقيدة لا تشوبها شائبة، وفكراً نيراً لا ينغلق دون الانتصار العلمي، وجهاداً لا يقف دونه حب الذات وعبودية الشهوات. . أقول: من خلال القناعة بذلك وجدنا الفقيد ـ رحمه الله ـ يمارس العمل الإسلامي ويعيه وراء حدود الكتاب ومقررات الامتحان في الأزهر، حيث جمعه الإخلاص والوعي إلى أولئك الذين وهبوا أنفسهم لقضية الإسلام، على أساس أنها القضية الأولى التي يجب أن يحيا لها الرجال. رافق ذلك قناعة أن الكفر كله ملة واحدة، وأن الوثنية اليوم بشتى ألوانها ومظاهرها وعناوينها الخادعة وغير الخادعة تحاول جاهدة، مجتمعة الكلمة موحدة الصف، أن تجهز على الوعي الإسلامي، مهما كلفها الثمن. . . أنَّى وُجِد هذا الوعي أو لاحت بارقة تدل عليه.

وإذا كان أمر الدعوة الإسلامية اليوم ليس كلمات يلهج بذكرها اللسان، ويتفكه بها في المجالس، ولكنه إخلاص وحسن تصوُّر، وحمل أعباء، وسيرٌ وفق سنن الله، ومعرفة بالأرض التي قُسم للداعية أن يغرس فيها بذور الخير، وإحاطة بالواقع الذي تعيش الأمة في ظلاله، وإدراك لما عليه العالم اليوم في أفكاره وعمله وتطوره الحضاري، أما إذا كان الأمر على العكس ـ لا قدَّر الله ـ، فما أيسر أن تتحول الدعوة إلى دويلات صغيرة هنا وهناك، ولكن ما أعظم أن يكون الداعية علي وعي وإخلاص يحملانه على الشمول في نظرته إلى الساحة التي يجب أن يكون عليها العمل في ظل دعوة لا تعرف الإقليمية والانحسار.

وكذلك كانت نظرة الشيخ الحامد ـ رحمه الله ـ وكذلك كانت معالم توجيهه وإرشاده لمن ولاه الله أمر توجيههم وإرشادهم؛ فعبثاً تحاول أن تجد عند أولئك الشباب الذين سعدوا بالانتفاع بعلمه وعمله وتقواه: نزعة انطواء عن الخط العام الذي يجب أن تلتقي عليه القلوب، بل العكس هو الذي يكون دائماً، صورة عن قناعات الشيخ ـ رحمه الله ـ فقد كان همه أن يعدَّهم علماً وإخلاصاً وسلوكاً من أجل أن يكونوا للأمة، يسلكون لنصرتها الطريق الجماعية الواعية التي تتسم بالإحاطة والتكامل، ويخرجون إلى الناس نماذج حركية للشباب المسلم الذي يحمل من العقيدة، صفاء الفكر وسلامة الإدراك لخصائص التصور الإسلامي، وتتقد بين ضلوعهم روح العمل والجهاد.

رحم الله الشيخ الحامد فلقد كانت هذه الرائعة من خصاله أوضح ما تميزت به شخصيته عند لداته وأقرانه، وأقوى ما استعلى به في ميدان الرجولة والوفاء في زمن قلَّ فيه الرجال، وعزَّ للدعوة الإسلامية الوفاء.

وكل ما ذكرنا من خلاله ـ رحمه الله ـ كانت روافد لهذه الرائعة العظيمة، ذلك أن وعيه للعمل الإسلامي وما كان من انعكاس ذلك على الأبعاد والمنطلقات في سلوكه وتصرفاته، جعل لكل من تلك المزايا والخلال معنًى جديداً، حتى بدت كل خصلة وكأنها رجل جديد يعمل للإسلام علماً وعملاً وجهاداً.

بل إن استقامة تصوره لطريق الدعوة كيف يجب أن يكون، جعل من كل واحدة من تلك الخلال سلاحاً يقاتل في معركة الإسلام التي تتحرك على

صعيد عالمي. فليس الأمر أمر (محمد الحامد) ولكنه أمر رائد من رواد القافلة المؤمنة التي تسربلت على مر الزمن نسيجاً من النصال التي يتكسَّر بعضها على بعض، وباتت كل يوم تقدم شهيداً يزيد في وضوح الرؤية وتحديد معالم الطريق.

وسيظل أمر المعركة كذلك مادام العدو هو العدو، وما دام الدين الذي يراد العمل لإعلاء كلمته هو مضمون قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ حتى يأذن الله بالنصر.

فما لم يكن ديناً يومذاك فليس ـ كما قال الإمام مالك ـ اليوم بدين. إلا أن يكون شيئاً مبتدعاً مخترعاً من عند بعض النفوس لا صلة له بالإسلام، والعياذ بالله.

إلا أنه ليس كثيراً على الغايات الكبار ما تجود به النفوس الكبار وفي مرضاة الله تعالى تهون الصعاب ويستعذب الموت.. فقد أقعد الشيخ الحامد ـ رحمه الله ـ مرضه الذي كان نتيجة طبيعية للجهد المتواصل، وما يرهقه من حمل أعباء أمته وما يؤرقه من همومها ولياليها السود، حتى قضى على حال نحتسب عند الله أن يكتب فيها من شهداء العلماء، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

وبعد: فسيظل هذا الرجل حجة على كل أولئك الذين يرهبون حمل الراية، ويجنحون إلى السلامة تحت وطأة تسويلات وتأويلات، وعلى كل أولئك الذين يأكلون الدنيا بالدين، ويقدمون للأمة ركاماً من الزيف

والانحراف وسوء التأويل يسمونه (سماحة الإسلام)، وينصرفون عن كلمة الحق باسم (الحكمة)، والأمل في أن يجنوا من القتاد شيئاً غير الشوك. ولله عاقبة الأمور. وما كان ربك نسياً.

أحشفا وسوءَ كيلَة (*)

هذا مثل تضربه العرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين، فمثل من يكون كذلك مثل من لا يكتفي ببيع أردأ أنواع التمر - وهو الحشف - وإنما يجمع إلى ذلك سوء الكيل أيضاً. والذي أعنيه كائن وراء هذا الذي أقول؛ فأنت واجد إذا أنعمت النظر أن هناك صنفين من البشر تبدو في سلوكهم صلة القربى مع هذا المثل الواضح المستبين.

أما الصنف الأول: فهو أولئك الناس الذين يقعدهم جهلهم أو عجزهم عن تحمل تبعات الإسلام في صفائه ودعوته إلى استقامة العمل والوقوف عند حدود الله عز وجل.. فيحمِّلون الإسلام نفسه حصيلة جهلهم أو عجزهم عن الاستقامة على الطريق التي قد تكون من الوعورة بحيث يهابها ضعاف النفوس، ويرهبها الذين يثقلهم حب الشهوات والعافية والطمع في العاجلة والغرض القريب. فبدلاً من التنقيب عن المرض الذي به قعدوا عن مسايرة ركب الإسلام، والأمانة في التزام حدوده، تراهم ينعون على الإسلام أنه غير صالح للحياة، أو أنه لا يساير ركب التطور.. أو.. أو.. وقد يذهلك التعداد بشعبه الشيطانية وألوانه المخزية.

ولو أن هؤلاء النفر من الناس استطاعوا أن يتحرروا - ولو بعض الشيء - من عبوديتهم لغير الله جلَّ وعز، وتزوّدوا بشيء من المعرفة، وأضاءت

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الرابع، السنة العاشرة، جمادى الآخرة ١٣٨٩هـ، آب أيلول ١٩٦٩م.

نفوسهم بقبس من نور التقوى والهداية، لسَلم لهم وضوح الرؤية وأبصروا الأمور على حقيقتها، وأدركوا أن العلة لا تكمن في هذا الدين الذي أكمله الله، وأتم به النعمة، ورضيه لعباده أجمعين، ولكن تكمن في أنفسهم هم، ولأيقنوا أنهم هم موطن العلة التي باضت وفرَّخت في عقولهم وحوَّلت طاقاتهم إلى نزوات وشهوات.

فهؤلاء الصنف من البشر: بدل أن يستأنفوا الطريق لإصلاح الخطأ، يجمعون إلى جهلهم أو عجزهم: اتهام الإسلام؛ تبرئة لنفوسهم الجاهلة العاجزة المريضة، وتسويغاً لما يكون من انحرافهم عن جادة الصواب، والعياذ بالذي قال في كتابه ـ وهو أصدق القائلين ـ: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾.

أما الصنف الثاني. فهو أولئك الذين يمثلون ظاهرة التخلف عن طريق الإسلام في دعوته إلى العلم والمعرفة، والانهزام النفسي أمام انتصارات أولئك الذين يمسكون اليوم بزمام الحضارة الحديثة، وقد جمعوا العلوم المادية من أطرافها، وباتوا يطالعون العالم كلَّ يوم بجديد.

فهؤلاء لا يحملون جهلهم وانهزامهم ويسكتون، بل يحاولون أن يتمسَّحوا بأذيال الإسلام فيفترون عليه الكذب بما يكون من قالتهم: الدِّين لا يرضى بالصعود إلى القمر مثلاً، وهذا أمر يجوز، وذاك في نظر الإسلام لا يجوز.. إلى آخر ما ترى وتسمع من الجود بالفتاوى وطرح الأحكام.

ويا عجباً لأمر الجهل ماذا يصنع بصاحبه، يورده موارد الهلكة، ويسلكه في قطيع التائهين. . ولو أن الأمر في تصرف الجاهل يقتصر على دائرة شخصية ضيقة، لهان الخطب، ونفعت الحيلة، ولكن الأمر يتعدى إلى دائرة أوسع وأشمل هي دائرة الجماعة، والطامة الكبرى في أولئك الذين يلصقون بالدين زوراً بهتاناً ما ليس منه، ويفترون ما هو منه براء، الدين الذي قام عليه كيان الأمة وغذّى تاريخها الحضاري ـ بل تاريخ الإنسانية ـ عبر قرون وقرون، هذا الدين. . يحاول بعض الناس أن يكسوه لباساً نسيجه جهلهم وبلاهتهم؛ ليبنوا للجهالة صرحها الذي يضمن استمرارهم على ما هم عليه، وليسوِّغوا ذلك الانحراف الذي يتسربلونه، حين باتت العودة إلى مفهومات الإسلام الصحيحة، والتزود بشيء من العلم والمعرفة من الأمور التي يتجافون عنها، وكأنما ضرب بينهم وبينها بسور لا يُقضى عليه حتى يلفظوا أنفاسهم فيستريحوا ويريحوا، وتبارك الذي أنزل فيما أنزل على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾.

وأود ـ بجانب ذلك ـ أن أؤكد ضرورة التنبه إلى الانهزام النفسي الذي أشرت إليه من قريب، لأنه أمر في غاية الخطورة على حياة الأمة حين ننظر إلى الأمد البعيد، ونحاول أن نضع القضية في إطارها الطبيعي.

ولعل ذلك كله هو السر الذي يكمن وراء الغثاء الذي تلقيه بعض الأفواه باسم الدين، وتلقيه بعض الحناجر على منابر المسلمين في موضوعات تعرض ـ فيما تعرض ـ لأحدث مرحلة علمية وصل إليها فكر هذا الإنسان المخلوق، حين استطاع بعد أن زحف مئات ومئات الألوف من السنين أن

يصعد إلى القمر الذي قدَّره الله منازل، والذي يفصل مركزه عن مركز كوكبنا الأرضي مسافة تبلغ نحو ٤٠٣, ٣٨٤كم.

والذي يحز في النفس، أن هذا الغثاء يتمثل في قول بعضهم: الصعود إلى القمر حرام، وقول آخرين من قبل: هذا أمر لا يمكن أن يكون، وأمر ثالث بعد هذا كله، هو ما أصاب بعض النفوس الجاهلة أو المريضة من تعب حيال القضية الإيمانية الكبرى في وجود الله وقدرته سبحانه وتعالى، ناسين أنه عز وجل هو القاهر فوق عباده، وأنه بكل شيء محيط، وأنه هو الذي أودع في الكون ما أودع من خصائص وسخر ذلك للإنسان.

إلا أن القول بهذا كله، أو بشيء منه، جهل بالعلم والإسلام معاً، ولو ذكرنا أن الإسلام بدأ رسالته على الأرض بقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾، وأن الآيات التي تكرم العلم وتحث عليه بلغت الحد الوافر في كتاب الله تعالى، وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان من وظيفته في هداية الناس كونه يعلمهم الكتاب والحكمة ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وأن في أحاديثه ـ عليه الصلاة والسلام ـ الكثير الكثير من النصوص التي تكرم العلم والعلماء، وأن ما وراء فرض العين من العلوم هو فرض الكفاية، ويشمل كثيراً من العلوم التجريبية التي نلمس آثارها اليوم عند أعدائنا الذين أمسكوا بزمام الحضارة الحديثة بلا أخلاق، وسخَّروا شعوب العالم لأهوائهم وسلطانهم وما يبتغون.

وأن القرآن جعل طريقاً واسعة رحبة من طرق الإيمان بالله: التدبر والتفكر في السماوات والأرض والنظر فيهما، وآياته في الأنفس والآفاق المطلوب

تدبرها شاهد صدق على وجوب الفكر وطلب العلم والتدبر. وفي هذا الخلق العجيب الذي تنزه عن التفاوت والعيب، كما أراد له الله أن يكون.. نعم لو ذكرنا ذلك ـ واليسير منه يكفي ـ لما كان هذا الذي نشكو منه اليوم.

فياليت شعري كيف يمكن أن يكون النظر إن لم يكن هنالك علم؟ وكيف يمكن أن يكون هناك تدبر إن لم يكن هنالك معرفة تساعد على هذا التدبر؟ إن القرآن دلَّ العربي في الماضي على ما يمكن أن يدركه كما نرى مثلاً في قوله تعالى جاعلاً النظر طريق الإيمان: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ باعتبار أن الناقة لها ما لها من أثر في حياة العربي، في مطعمه ومشربه وسفره وراحته وما إلى ذلك، وظلَّت أمور كثيرة وكثيرة لا يُظهر إعجاز القرآن فيها إلا العلمُ الذي يصل إليه العقل البشري مرحلة بعد مرحلة.

فأنى لنا أن نقول: هذا يجوز وهذا لا يجوز، مع أن التدبُّر في آلاء الله مرتبط بالإيمان أتم الارتباط. والمفروض بالمؤمن العاقل أن يزيد إيمانه ويقوى يقينه، بمثل هذا.. إن اكتشافنا لجانب صغير صغير من مخلوقات الله تبارك وتعالى لا يحملنا على الشك في وجود الله، وإنما يزيد يقيننا بوجوده وعظمته سبحانه، والاعتراف بأن هذا النظام في المجموعة الشمسية وغيرها لا يمكن أن يصدر إلا عن خالق عليم حكيم مبدع له الخلق والأمر.

إلا أن الإسلام لا يهاب العلم لأنه دعا بحرارة إليه، ولا يرهب ما يصل إليه العقل البشري من اكتشاف لكوكب أو كواكب من هذا الخلق البديع الذي لا ترى فيه من تفاوت؛ لأنه جعل النظر والتدبر والتفكر طريق الإيمان ـ والحمد لله ـ وهذه خاصية تميز بها الإسلام.

وأكثر من هذا: لقد كان المفروض أن تصل أمتنا إلى هذه المرحلة قبل هؤلاء الناس بعدة قرون أن لو ظللنا مع الإسلام، وسَلم لنا خطنا البياني في صعود صاعد بما يشرق عليه من ضياء هذا الدين الذي تربى في ظله آلاف الرجال الذين كانوا يتقربون إلى الله تعالى بما يخطون للأمة من معالم المعرفة. وعلى ما ضاع من تراثنا على أيدي التتار والصليبيين، والفتن والحروب: ما تزال الآثار ـ في المخطوط والمطبوع ـ شاهدة على هذا الذي نقول، ولن تعدم الدنيا منصفاً ـ ولو من الأعداء ـ يعترف بذلك.

فبدلاً من الانهزام، والتوكؤ الجاهل على الدين، وتلبيسه الثوب المفترى، لا بد من الشعور بمزيد من المسؤولية، والمحاولة الجادة لاستئناف الطريق الواعية التي تعطي كل شيء قدره في ظل الإسلام، ولن ترضى الأمة أن يكون فينا أناس يحاولون باسم الدين أن يضمنوا الاستمرار على حساب جهل الأمة بدينها، وبناء قصور من الأوهام والخيالات والخرافات باسم الدين، والدين من هذا كله براء!!

إن التاريخ ما يزال ينعي على أولئك الذي كانوا ينتسبون إلى غير الإسلام في أوروبا، ويحاولون أن يحاربوا العلم باسم الدين؛ لأن بقاءهم فيما هم عليه بسلطانهم وسيطرتهم على الناس مرهون بأن يظل هؤلاء الناس يغطون في سبات عميق من الجهل والخرافة والانحراف. كان ذلك يوم كانت يد الإسلام العالمة العارفة الحكيمة القوية، في مشرق عالمنا الكبير ومغربه تشق جيوب الظلام في العالم كله.

مرة ثانية نقول لهؤلاء وأولئك: أحشفاً وسوء كيلة!! ألا لا يجمعنَّ الجاهلُ إلى جهله بالإسلام والعاجزُ إلى عجزه عن متابعة طريق الإسلام: إلقاءَ التبعة على الإسلام. ألا لا يضمنَّ أولئك الجهلة والمنهزمون في أعماقهم إلى هذا البلاء: أن يستخدموا الافتراء وسيلة لاستمرار وجودهم وكيانهم، والإسلام دين العلم والمعرفة والنور.

ألا وليعلم الرواد الذين أكرمهم الله بوافر من الإيمان والهدى: أن جانباً كبيراً من التوعية يقع على عواتقهم في مثل هذه الأمور؛ فدعوة الإسلام كلٌّ لا يتجزأ، وبناء متكامل كما أراد الله له أن يكون.

ومعقد الأمانة في هذا الباب، أن من المنكر الذي لا يمكن أن تقبله نفس مؤمن: أن ينضم إلى بلاء هذه الأمة في ديارها وأرضها بلاء تأصيل الجهالة، واعتبارها من الإسلام باسم الحفاظ على الدين وتقوى الله عز وجل؛ ليكون للأعداء ما يريدون من بقاء الأمة في الوهدة التي هي عليها اليوم.

إنه لابد أن تمسك الأمة بالزمام من جديد؛ وذلك بموالاتها حقائق الإسلام في العلم والمعرفة، والإفادة بوعي وأمانة مما عند الآخرين، وجعل العلم والمعرفة في طاعة الله وتحقيق رسالة الإنسان؛ كيما يستأنف مسلم اليوم طريق مسلم الأمس، فلا تنقطع الجسور بين مسلم الغد وبين الذين حملوا رسالة المعرفة - معتزين بإسلامهم - إلى العالمين. وجلَّ الذي قدَّر فهدى، وتبارك الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم، وسبحان من أنزل على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

نصيحة لابدّ منها... (*)

يغالبني على القول كلام ما أحسبه تاركي حتى يأخذ من كبدي ما يشاء، ذلكم هو حديث تلك الحال من الضياع الذي تعانيه أمتنا، صورة عن هول المطارق التي تدق بهولها العقول والقلوب صباح مساء.

وليس من مكرور القول أن نذكِّر بأن من الأغراض التي يرمي إليها أعداء الأمة بكثير من المنهجية والتدبير، أن تظل هذه الأمة في دوامة من النَصَب والتعب لا تنتهي؛ كيما يخرج بها ذلك عن دائرة البناء في ظل الرسالة التي أكرمها الله بنظامها فكانت به خير أمة أخرجت للناس.

ولو أنك تجاوزت ما تعانيه الأمة اليوم مع «يهود» وما ترى العين وتسمع الأذن من آثار شاهدة على الأذى والإصرار على العدوان والسلب والاغتصاب، بمعاونة الطوافين حول الأرض والصاعدين إلى القمر... لو أنك تجاوزت ذلك إلى أي بقعة من وطننا الكبير، لوجدت على كل أرض من تلك البعقة ما يُراد به الضياع، وما يُراد منه أن تكون الأمة على حال من الحيرة بين «عود على بدء وبدء على عود»، وخذ لذلك من المترادفات ما شاء لك الفكر ووسعتك الحقيقة، بله الخيال...

هذه حقيقة ماثلة لا ينكرها إلا مكابر ولا يتجاهلها إلا من كان بينه وبين النعامة نسب متصل أوثق الاتصال.. ولسنا نبغي من وراء ذلك أن يكون

(*) مجلة حضارة الإسلام: العددان الخامس والسادس، السنة العاشرة، رجب وشعبان ١٣٩٨هـ، أيلول وتشرين الأول ١٩٦٩م.

الكلام معواناً على التشاؤم أو اليأس، فاليأس من رَوْح الله لا يلتقي مع الإيمان بنصره وتأييده إذا نحن سلكنا للغاية سبيلها، وللنصر طريقه التي رسمها الإسلام.

ولكن الذي نبغيه أن أي أمة من الأمم إذا تجاهلت الحقائق، ورضيت من الذود عن حقها بالأماني ضاعت عليها المعالم، وتعثرت في طريقها أو تعثر بها الطريق. إن من العجب العجاب أن تحيط بنا نحن الغفلة وتنطلي علينا الحيلة، ونقع في شرك الاستجداء، فنحن أمة ـ ولله الحمد والمنة ـ أكرمها الله بالإسلام فكانت مبادئنا قرآناً يُتلى في المحاريب، ودروساً تُلقى على منابر العلم، وحركة حضارية تضع الإنسان بطاقاته وأهليته وتكوينه في مكانه الطبيعي من البناء، فأنَّى تلفَّت اهتدى بمعالم هذا الإسلام، فلا يضل الطريق ولا يشقى على مدى الأيام.

وإذا كنا ننتظر من أعدائنا أن يسقطونا من حسابهم، ويدَعونا وشأننا، نستمتع بالحياة، ونسير في طريق البناء، فهذه أحلام لا طائل تحتها، وهي أشبه بوساوس الذي يريد أن يجني من الشوك العنب. إنك لو سميت الثعلب بألف اسم واسم، وزخرفت ولوّنت، فلن يكون في تعامله ومخططاته إلا الثعلب، إذ إن كل الذي صنعته من الزخرف لن يغير من حقيقته شيئاً.

وإذن فالذي يجب أن يأخذ مكانه الطبيعي من اهتمامنا ـ مع القضايا الراهنة التي تفرض نفسها على الأمة ـ إنما هو التفتيش عن ذاتنا وكياننا وهويتنا بين أمم الأرض، وتحقيق ذلك على أساس من المنهجية المثمرة التي

تضع في حسابها كل عنصر من مقومات هذه الأمة ومنابع حياتهاوأمجادها في تاريخ بني الإنسان. ولن يكون ذلك إلا في ظل الإسلام كما جاءت به منابعه الأولى في كتاب الله تعالى وبيان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم فهوم أئمة الهدى من علمائنا الأولين.

وهذا الذي يمكن أن ندعوه تحديد الموقف الذاتي: كان من أوليات المسائل التي جاءت بها دعوتنا الطاهرة المجيدة، ومن الكليات الأولى التي على هداها قام البناء، وثبت أصل الشجرة التي فاء إلى ظلها التاريخ ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾.

فمن أول الطريق في العهد المكي: حيث ابتلاء المؤمنين يذر قرنه هنا وهناك وسدنة الوثنية يحاولون بشراسة أن يحولوا دون بزوغ الفجر الجديد، والمساومات تلقي بثقلها على أرض الموحِّدين.. من أول الطريق يومذاك نزل قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ...** ﴾.

وبعد فتح مكة حيث فرح المؤمنون بنصر الله، وأزيح من حول الكعبة ظلام الأوثان وعبدة الأوثان.. بعد فتح مكة ينقض المشركون عهداً كان بينهم وبين المسلمين فينزل قول الله تعالى: ﴿ **بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ...** ﴾.

فكانت البراءة خاصة بأولئك الذين عاهدوا ونقضوا العهد، ولكنك لا تكاد تنتهي من قراءة الآية الأولى حتى تطالعك الآية الثانية بحكم عام يقول

فيه الواحد القهار: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾.

ولعلك لا تجد نَصَباً في أن تُعْمل فكرك للربط بين نزول سورة (الكافرون) أيام الخطوة الأولى في العهد المكي، حيث الشدة والبلاء وتهديد القلة المؤمنة بالفناء، وبين نزول فواتح سورة التوبة بعد أن ارتفعت راية التوحيد على رُبى مكة وعلا هدير الكلمة المسلمة في تلك الربوع والأصقاع.

ومن هنا كنت ترى أن الخطاب القرآني للجماعة المسلمة لا يهادن ولا يتهاون في شيء من حرارة التذكير بالقاعدة التي لا يجوز المساومة عليها أو التغاضي عن ساحتها ومدلولها؛ لأن بها حفظ كيان الأمة، وسلامة طريقها إلى الغاية، والحيلولة بينها وبين أن يصيب الأعداء منها مقتلاً، أو يوقعوها في شرك الغفلة، ومصائد شياطين الإنس والجن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

ما أحسب أن عاقلاً يرى هذا الوضوح في الخطاب، وحرارة الإلقاء في روح المؤمنين وقلوبهم، وربط كل جزئية بالكلية العامة التي هي المحور الأولي، ثم يخالجه شك في أن طريق الأمة إلى الخروج من ظلام دوامتها في وطننا الكبير: إنما يكون بالعودة الصادقة إلى المنطلق الذاتي لها، والذي يرتد إلى قاعدة البناء، التي جاء بها هذا الخطاب القرآني.

والكشف عن نقاط الضعف في الصفوف: يهتك أستار المنافقين ولا كرامة؛ لأن الطريق بأشواكها وبعد مراحلها، وعزة غايتها لا تحتمل مهادنة ولا مهاودة ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا**﴾.

إن الوقائع بحرارتها وعنفوانها، ولؤم الأيدي التي تحركها: جديرة أن تلفتنا عن طريق الضياع، لنبصر معالم طريقنا التي دعانا محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ننتهي إليها، والليالي حبالى بالحوادث، وفي كل صباح يطلع عليك نبأ جديد.

وإذا انتهينا إلى تلك المعالم، ووقفنا حيث ينبغي أن تقف الأمة التي تدرك أصالتها وذاتها: كان من أبسط النتائج اعطاء الحكم الصحيح في كل جزئية

تعرض، وذلك بردها إلى أصلها الذي خرجت منه، وعند البحث ترتد إليه؛ لإننا ننظر بمنظارنا نحن، لا بمنظار يوضع على أعيننا ويراد منا أن نبصر من خلاله.

فموقفنا من يهود وموقفهم منا لا يحتاجان إلى إيضاح أو تبيين. إن حريق المسجد الأقصى ـ على سبيل المثال ـ تلك الجريمة التي لا يدرك هولها إلا من كانوا من بني الإنسان بالمعنى الصحيح، هذا الحريق نتيجة طبيعية لوجود الأقصى تحت سلطانهم وفي ظل أنظمتهم وقوانينهم، فما الذي أنت ناظره من هؤلاء حين يكون الأقصى تحت سلطانهم؟؟ خصوصاً إذا تذكرت أنهم الآن يحاولون من خلال عقدة أصبحت مرضاً موروثاً على الأجيال إثبات أن من واجبهم إعادة بناء هيكل سليمان، الذي يزعمون وجوده تحت المسجد الأقصى، وإن المسلمين غاصبون للأرض التي عليها الهيكل، إنهم يريدون أن ينتقموا من الأيام الطويلة خلال عشرات القرون ـ ومن التاريخ الإسلامي بخاصة ـ في كيان أصحاب الأرض التي يحتلونها، والمسجد الذي كان إليه مسرى سيد العالمين محمد ـ صلوات الله عليه ـ.

لقد يكون مفيداً أن نثير العالم ونفتح الأعين المغلقة على هذه الجريمة، ولكن احتلال المسجد في الأصل أشنع منها وأبشع، ويمارس اليهود تحت سقف هذا المسجد الذي هو ثالث الحرم، والذي تعدل الصلاة فيه خمس مئة صلاة في غيره.. يمارس اليهود أشنع أنواع الأذى والخلاعة والميوعة وما هو من أخلاق الخنازير، وأصبح ذلك أمراً مشهوراً ومعروفاً أن حريق جدران المسجد ليس الحريق الوحيد، ولكنه واحد من ألوان الحريق التي تصيب مسجدنا وأرضنا كل يوم.

ومن جهة ثانية، فإن جلاء الحقيقة المرة والكشف عن جوانبها لا يهابه إلا ضعفاء النفوس. فأي تقدير حقيقي كنا نمنحه لهذا المسجد من قبل، وكم كان عدد المصلين الذين يؤمُّونه في الصلوات الخمس؟؟ ما أحسب أن الجواب مُرْضٍ عن هذا التساؤل. بل قد يدخل بعض من لا خلاق لهم على غير وضوء لحاجة تتعلق بمصالحهم الخاصة لا بمرضاة الله عز وجل.

وكأين من مسلم في أقطار العالم الإسلامي لا يدري ما هو السبب في قداسة هذا المسجد، وأنه ثالث الحرم، وأن الحديث الصحيح قد أثبت أن الصلاة فيه تَعْدل خمس مئة صلاة، وأن الأهمية البالغة وراء هذا كونه المسجد الذي اختاره الله لرحلة الإسراء من المسجد الحرام إليه، فالقضية لا ترتد إلى التاريخ فحسب، ولكنها مرتبطة بالعقيدة قبل كل شيء.

إن القيمة الدعائية لموضوع ما في ميادين أخرى غير ميادينا: إنما تُؤتي أُكُلَها إذا نحن حرصنا على أن نكون على أرض المعرفة والإيمان والإدراك للقضية التي نتحدث عنها بالإيجاب أو السلب. وإن النصيحة لله ولرسوله وللأمة: تقتضينا، والحرمات تُستباح، والمقدسات تُنتهك، والإصرار على العدوان والتشريد والاغتصاب قائمٌ من العدو وممن وراء العدو. أقول: إن النصيحة تقتضينا أن لا نُغفل الجانب الأساسي من جوانب قضية من قضايانا فنمارس ما يشبه إحراق القيم، وهذا كما قلت من أبسط النتائج التي تثمرها النظرة الذاتية الأصيلة، والتحول عن طريق الضياع.

إن للإسلام كلمة قالها قبل أربعة عشر قرناً في «يهود»، ولقد سجَّل القرآن ذلك بآيات تُتلى حتى يرثَ الله الأرض ومَنْ عليها، وبيَّنتْ جوانبه وأوضحتْ معالمه السيرة النبوية بما لا يدع زيادة لمستزيد. والإسلام يدعونا لأن نفتح قلوبنا وأعيننا على ذلك، وأن نغذ السير إلى حيث المرتقى الصعب والغاية البعيدة غير عابئين بما يُوجب ذلك من تضحيات وبذل، فالله لا يضيع عمل عامل، ولا يُنسى عنده مثقال ذرة، وإلا نكون ألقينا بيدنا إلى التهلكة، وقد نهانا سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

إن الإسلام المنقذ القادر على تحويل العواطف إلى أعمال يطالبنا اليوم بالوفاء.

فالمسلمون اليوم: فريقٌ يعرض عن الإسلام، وفريقٌ يحمله للدعاية والاستغلال، وتُحارَبُ الفئة الثالثة.

والحق أن عودة صادقة ذاتية إلى الإسلام على أساس منهجي سليم، بعيد عن الأغراض القريبة التي تعقد لها المؤتمرات الرسمية وتجمع لها الجموع: هي الكفيلة بأن تسلك بنا سبيل الإعداد الصادق بكل مجالاته ومفهوماته، لا لننتصر على يهود وغيرهم فحسب، بل لنأخذ دورنا الحضاري البنَّاء من جديد. ذاكرين دائماً قول الله تعالى في قيمة القتال والمقاتلين في سبيل الله: ﴿**فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾.

وقوله جل شأنه في بيان أن الله لا يغير ما بقوم من النعمة والتمكين في الأرض حتى يغيّروا ما بأنفسهم، فإذا استأنفوا طريق الخير عاد لهم النصر والأمن والتمكين: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾. والله غالب على أمره وما ربك بغافلٍ عما يعمل الظالمون.